الدرس الرابع: آليات ومراحل التحول الديمقراطي

1- الآليات:

هناك صنفان من آليات التحول الديمقراطية، سليمة وغير سلمية.

أ- الآليات السلمية:

وفيها تتم عملية التحول الديمقراطي دون لجوء الأطراف الداخلية أو القوى الخارجية (في حالة العامل الخارجي) إلى استخدام العنف كوسيلة للتحول، وتمثل **الإنتخابات** الآلية الأساسية والجوهرية في عملية التحول السلمي. فالإنتخابات الحرة والنزيهة والشفافة هي الكفيلة بالتعبير عن الإرادة الحقيقية لمجموع المواطنين في اختيار من يمثلهم، وفي اختيار مختلف المؤسسات السياسية التي تمثلهم، وفي اختيار وإقرار الدستور والقوانين التي تحكمهم، ...إلخ. الإنتخابات العامة والحرة والشفافة هي التي تجسد مبدأ الإرادة العامة والشعبية في ممارسة السلطة، خاصة التشريعية منها.

لكن الإنتخابات لا يمكن لوحدها أن تضمن عملية التحول الديمقراطي، بل تحتاج إلى آليات أخرى يرتكز عليها مفهوم النظام الديمقراطي كما تبلور في الدول الديمقراطية العريقة، وفي مقدمتها الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا. في مقدمة هذه الآليات نجد **التعددية** السياسية والحزبية، فبدونها لا يمكن الحديث عن مفهوم المنافسة السياسية التي تتم بين أحزاب سياسية من أجل الوصول إلى السلطة عبر المرور بصناديق الإنتخاب، فبدون وجود متنافسين على السلطة يصبح الإنتخاب **استفتاءا** وليس انتخابا. ويقتضي التنافس على السلطة إقرار مبدأ أو آلية **التداول السلمي على السلطة**، بحيث يضمن الدستور الديمقراطي وقوانين الإنتخاب إمكانية حصول الفائز في الإنتخابات على السلطة وممارستها لمدة محدودة، يتم تجديدها عن طريق الإنتخاب دائما.

ب- الآليات غير السلمية:

تتمثل في استخدام العنف من أجل الشروع في عملية تحول ديمقراطي، حيث يمكن أن تتم العملية عن طريق **الإنقلاب**، بحيث يصل إلى السلطة حاكم جديد عن طريق الإنقلاب على الحاكم السابق باستخدام القوة العسكرية في الغالب (انقلاب عسكري)، ومن ثم يباشر عملية التحول إلى الديمقراطية. وقد تأتي عملية التحول عن طريق آلية **الثورة** التي يقوم بها المعارضون للحكم تنتهي بإسقاط النظام الحاكم واستبداله بنظام جديد يؤمن بضرورة التحول

إلى الديمقراطية فيشرع في إجراءاتها. وقد تكون عن طريق **التدخل العسكري الخارجي** الذي يعمل على إسقاط النظام القائم واستبداله بنظام آخر يتبنى قواعد النظام الديمقراطي.

وفي الحالات الثلاثة، تمثل هذه الآليات وسائل إسقاط النظام القائم، أي المرحلة الأولى من مراحل التحول الديمقراطي فقط، وتقتضي المرحل الثانية المرور عبر آلية الإنتخابات.

5- مراحل التحول الديمقراطي:

يعد الإنتقال من اللاديمقراطية إلى الديمقراطية سيرورة معقدة تنطوي على مراحل عدة، على الرغم من صعوبة التثبت من نقطة بدء مرحلة ما وانتهاء أخرى. وفي الحالة النموذجية المعاصرة، تتسم السيرورة بحدوث أزمة داخل النظام اللاديمقراطي، يتبعها الإنهيار تدريجيا. وإن بدأ الإنتقال إلى الديمقراطية بنوع من الأزمة في الحكم التسلطي، والتي تقنع الحكام بترك مناصبهم، فإن هذه المرحلة تنتهي بتنصيب حكومة جديدة بناء على انتخابات حرة.

لكن السيرورة الناجحة للإنتقال الديمقراطي لا تنتهي عند هذا الحد. فالنظام الجديد سيكون على الأغلب ديمقراطية مقيدة، أي نظاما أكثر ديمقراطية من سابقه لكنه ليس ديمقراطيا بالكامل. وقد يكون من الضروري المرور بمراحل عديدة من "تعميق الديمقراطية" قبل الوصول إلى تلك المرحلة. من جانب آخر لا بد من ترسيخ النظام الجديد، وفي رأي كثيرين، لا يتحقق هذا إلا عندما تنظر جميع الأطراف السياسية الفاعلة الرئيسة إلى الديمقراطية بوصفها الخيار الوحيد المتاح أمامها. وغالبا ما نجد تداخلا كبيرا بين هذه المراحل. وتجدر الإشارة إلى أن هذه المراحل قد تتخللها أزمات وانتكاسات، كما أن نتيجة تغيير الأنظمة قد لا تكون الديمقراطية بالضرورة.

ميّز كلاً من فليب شميتر وجليرمو أودونيل بين مرحلتين أساسيتين هما: مرحلة التحول إلى الليبرالية السياسية، ثم مرحلة التحول إلى الديمقراطية. وذهب صامويل هانتنغتون إلى أن عملية التحول الديمقراطي تنطوي على ثلاث مراحل وهي: انهيار النظام السلطوي القديم، إقامة النظام الديمقراطي، وأخيراً دعم وتوطيد النظام الديمقراطي.

ومن جهته، قسّم "دانكوارت رستو المراحل التي يمر بها التحول الديمقراطي إلى أربع، وهي:

أ- مرحلة نشوء اتفاق عام حول الهوية الوطنية وشبه إجماع بقبول الحدود السياسية للبلد المعني.

ب- مرحلة بروز صراع عنيف أو مسالم بين شرائح اجتماعية أو طبقات داخل الكيان السياسي الجديد ينتهي إما بانتصار كاسح لإحدى الفئات مما يعيق التقدم نحو الديمقراطية أو بنشوء توازن اجتماعي جديد.

ت- مرحلة القرار السياسي في ظل الصراع غير المحسوم تعقد الأطراف الصفقات وتتوصل إلى الحلول الوسطي، وذلك بناءً على حسابات عقلانية للربح والخسارة.

ث- المرحلة الأخيرة يظل مستقبل الديمقراطية متأرجحاً إلى أن تتحول تدريجياً إلى ممارسة يومية وتصبح عرفاً اجتماعياً.

مراحل التحول الديمقراطي حسب Dankwart Rustow